الفصل الثاني عشر

الإصلاح

لا صلاح بدون إصلاح

لقد بدأ صلاح الدين عهده كوزير لمصر بالإقدام على الإصلاح الشامل لأوجه الفساد التي كانت قائمة قبل توليه منصبه والتي شاهدها بنفسه بل وعانى منها مرات عديدة. وبالتالي نخلص إلى أن محاربة التقصير والفساد في المجتمع هي بالطبع مسئولية كل مسلم يهدف إلى نهوض الأمة وبلوغها المرتبة التي قدرها الله لها. ولذلك، فإن التصدي لأي منكر والقضاء عليه واستبداله بالمعروف يتصدر أولويات الالتزام نحو الأمة. والغرض من عرض ما قام به صلاح الدين من إصلاحات هو حث كل منا على محاكاته محاكاة عملية نحول بها السلبيات إلى الإيجابيات حتى يتواجد من رجال وشباب الأمة صلاح الدين القرن الحادي والعشرون.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:٧٧]

كان وصول الحملة الصليبية إلى دمياط مفاجأة لصلاح الدين الأيوبي الذي كان يتوقع حضورهم إلى بلبيس أو الإسكندرية، ولذا قام بدعم المدينتين بقوات استعداداً لمواجهة الصليبيين. ولما كانت الظروف تقتضى بقاء صلاح الدين نفسه في القاهرة، أرسل قوات إلى دمياط تحت قيادة خاله شهاب الدين الحاريمي وابن أخيه

تقى الدين لمساعدة المصريين على صد الهجمات الصليبية. وبطبيعة الحال، كان صلاح الدين في موقف لا يحسد عليه من الحرج البالغ لإحاطة المشاكل به من جوانب عديدة، فكان مشغول البال بين حملة فتح النوبة في الجنوب، والمشاكل المتراكمة في القاهرة، حتى جاء الصليبيون من الشمال لتفتح عليه جبهة ثالثة شرها أكبر وأعمق من المشكلتين السابقتين. وكان صلاح الدين يواجه تلك التحديات الثلاثة ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى. وبما أن الله عز وجل ينصر من ينصره، فقد كفى صلاح الدين مواجهة الصليبيين وقتالهم، وقضى على الصليبيين أجمعين دفعة واحدة!

فى ذلك الوقت، كان ميعاد فيضان النيل قد حل وبدأت المياه ترتفع كلما اتجهت شمالا. ولم يكن الصليبيون يضعون في الاعتبار أحوال مصر المناخية. وكانت دمياط متصلة بمجموعة من الترع المتشعبة التي ترتفع فيها مياه الفيضان بمنسوب عال حتى تدفق إلى البحر. سبحان الله! ما بين عشية وضحاها أغرق الفيضان كل من كان في المعسكرات الصليبية وقذفهم في اليم. ويعلق ستانلى بول، أحد المستشرقين الألمان، على ما حدث لقوات تلك الحملة الصليبية بقيادة أموري فقال: "لم يستطع الجيش الصليبي أن يدخل مصر إلا بجثث هامدة، أمواتا غير أحياء، فقد قضى عليهم فيضان النيل".

وقد رأى الخليفة العاضد أن يكرم صلاح الدين الأيوبي لضحده الحملة الصليبية التي جاءت لتحتل البلاد، فأعطاه ألف ألف دينار ذهبية! وما أن وصلت هذه العطية إلى صلاح الدين إلا أن وزع نصفها على صعيد مصر من منطلق حرصه على عدالة التوزيع. أما النصف الثاني فقد أودعه في خزانة الجيش لتكوين جيش مصري قوى ومدرب على فنون القتال.

هذا الشبل من ذاك الأسد

بعد هلاك الحملة الصليبية بفترة بسيطة، وصل إلى مصر نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين. وفى تلك اللحظة تظهر الأخلاق الحميدة التي نشأ عليها ذلك القائد المسلم إذ أنه انطلق إلى أسوار القاهرة مستقبلا أبيه وعارضا عليه منصب الوزارة! فما أجمل التعبير عن البر بالوالدين والاعتراف بالفضل للوالد. ولما كان نجم الدين أيوب رجلا حكيما تعفف عن المنصب ملاطفا ابنه وقائلا له: "لا ينبغي أن نغير موضع السعادة الذي جعله رب العالمين عندنا، وأنت يا يوسف موضع هذه السعادة". وأراد الخليفة العاضد إكرام نجم الدين فخصص له إيراد كل من دمياط والإسكندرية.

السحابة السوداء

في تلك الفترة أقبل صلاح الدين على إصلاحات متنوعة في مصر. وقد شغلت اهتماماته مجالات عدالة توزيع الدخل، وتوسيع الترع القائمة وشق ترع جديدة، وإنشاء مباني جديدة. ولكن، جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد بدأ صدر نور الدين محمود يضيق من تصرفات صلاح الدين الأيوبي، وأحس أنه لم يعد تحت إمرته. ويرجع هذا الشعور لعدة مواقف اتخذها صلاح الدين. أولاً- بعد أن استتب الوضع في مصر، توقع نور الدين أن يرسل صلاح الدين أموالا من مصر إلى الشام للمساعدة في محاربة الصليبيين، ولكن صلاح الدين أنفق تلك الأموال على الشعب المصري محاولا النهضة بظروفه المعيشية حتى يشعرهم بفكره الإصلاحي الجديد. ثانياً- انتظر نور الدين أيضا من صلاح الدين أن يهاجم حصني الكرك والشوبك عند العقبة، وهما من الحصون المهمة للصليبيين الذين يهاجمون الحجيج منهما. وبدلا من ذلك، وصلت الأخبار إلى نور الدين أن صلاح الدين بدأ يتوسع في جنوب مصر وفتح النوبة وبعض الأماكن في غرب مصر مثل برقة وطرابلس في ليبيا. ولعل

ذلك كان ثالث الأسباب التي أوغرت صدر نور الدين ضد صلاح الدين إذ شعر أن الأخير بدأ يظهر تغيراً في علاقته بالدولة النورية. ولكن السبب الرئيسي والعميق التأثير كان يكمن في تحريض كل من قطب الدين ينال وعين الدولة اليروقى لنور الدين محمود ضد صلاح الدين الأيوبي حيث كانا يطمعان في منصب الوزارة الذى تولاه صلاح الدين. ولقد استطاع هذان الرجلان إقناع نور الدين أن صلاح الدين على وشك الاستقلال بمصر وجعلها إمارة منفصلة عن الدولة النورية، وأن صلاح الدين أصبح عاملا ضد وحدة الشام ومصر رغم أن ذلك كان هو الشغل الشاغل لنور الدين منذ فترة طويلة.

الأصل الصالح

ولكن الحقائق كانت على عكس ذلك تماما حيث إن صلاح الدين كان يواجه قدراً كبيراً من المشاكل في مصر تمثلت في مؤامرات عمارة اليمنى ثم مؤتمن الدولة نجاح وثورة السودانيين وثورة الأرمن، وذلك بالإضافة إلى مؤامرتي عباس بن شادى في قوس وراشد بن سليمان في النوبة. وفى الواقع ، لم يتمكن صلاح الدين من إخماد القلاقل في هاتين المنطقتين إلا عندما أرسل أخاه طوران شاه على رأس قوات تمكنت من فتح النوبة.

ولكن الأمور كانت مختلطة على ذهن نور الدين محمود بخصوص تصرفات صلاح الدين التي أسئ تفسيرها لنور الدين للإيقاع بينه وبين صلاح الدين. وقد رأى نجم الدين أيوب الضرورة ملحة لمخاطبة ابنه في شأن علاقته بنور الدين محمود، فقال له: "والله لو أن نور الدين أمرني وخالك، وليس على الأرض من يحبك أكثر منا، أن نقتلك لقتلناك طوعا. وما نفعل ذلك إلا لرجل قضى حياته كلها يغرس فينا كيف يكون الإخلاص لله. والله ما يملك نور الدين إلا أن يبعث إليك بحبل وعبد يسوقك إليه طائعا فتكون طوع بنانه".

ويعكس ذلك التوجيه القاسي الذي وجهه نجم الدين أيوب لصلاح الدين مدى عدم انبهار نجم الدين بالمنصب ولا السلطة التي كان ابنه صلاح الدين قد اعتلاهما، بل أنه كان يضع دائما نصب عينيه مرضاة الله سبحانه وتعالى ومصلحة الأمة التي كانت تتمثل في ذلك الوقت في وحدة الشام ومصر لاسترداد بيت المقدس. وهو ما يدل أيضا على حسن التربية التي اتبعها مع ابنه والتي أتت أكلها بالفعل حيث بدأ صلاح الدين يعمل جاهدا على إرضاء نور الدين. فقد أسرع صلاح الدين في إرسال الأموال إلى الشام، بالإضافة إلى رسائل الولاء التي كان يوجهها إلى "الأمير السلطان نور الدين محمود"، ذلك اللقب الذي كان يدعو له به في خطبه ويضرب به العملات.

صلاح الدين ... المربى الفاضل

نبعا من مسئوليته الضخمة، ورغبة منه في تنشئة جيل جديد قادر على النهوض بالأمة، شرع صلاح الدين الأيوبي في إنشاء المدارس المتخصصة. وقد أنشأ المدرسة الكاملية والمدرسة الناصرية على غرار المدرسة الأيوبية والمدرسة النورية القائمتين وقتها في دمشق. وبدأ يغرس فكرة الجهاد والدفاع عن أمة الإسلام في الأطفال ذوى السابعة والثامنة من عمرهم. وكان الغرض من ذلك منح هؤلاء الأطفال مدة تعليم تصل إلى عشر سنوات يتشربون فيها المسئولية تجاه بارئهم وأمتهم لينشروها بين الرعية ويصيروا نواة لجيش قادر على فتح بيت المقدس، وهو الأمر الذي حدث بالفعل عام ٥٨٣ هجرية.

ولنضع تلك البداية الصحيحة التي سلكها صلاح الدين الأيوبي مثالا نسير على خطاه إذا أردنا تكوين جيل جديد قادر على تحمل مسئولية تنفيذ المسئوليات الملقاة عليه من إعلاء راية الإسلام واسترداد أراضيه وحقوقه المغتصبة. ولذلك يجب الاهتمام بالتعليم السليم من خلال إحداث تغييرات جذرية تتيح فرصة التربية

والتوعية السليمتين. وهنا تصبح الحاجة ماسة إلى اتباع مناهج من شأنها العمل على إبراز أفراد قادرين على القيادة في المستقبل. وقد أقدم صلاح الدين على اتباع خمس خطوات مكنته من تحقيق أهدافه. بادئ ذي بدء، أنشأ صلاح الدين مدرسة لاكتشاف القدرات وإعداد برامج خاصة للمواهب . ثم حرص ذلك القائد المربى على أن يجالس الشباب نخبة من العلماء وكبار الشخصيات الذين يتولون مهمة غرس العقيدة الصحيحة فيمن تعقد عليهم آمال المستقبل. كما أعان الهدوء والتوازن القائمين داخل أسرة صلاح الدين أشد العون على إحاطة الأطفال عاطفيا لبناء النفس المطمئنة المطلوبة لإبراز جيل قيادي في وقت من الأوقات. وكذلك اهتم صلاح الدين بأن يكون الشباب ملماً بالأحداث التي تمر بها الأمة، فأمر بالدروس الأسبوعية داخل مدارس مصر لتتحدث عن الجهاد في سبيل الله عز وجل، وتحرير الأرض، وبث روح الإيمان، وإشاعة الأخلاق الحميدة. وفى الواقع، فإن كل ما فعله صلاح الدين في هذا الخصوص كان نتيجة لإدراكه أن الأمة لن تنهض إلا بتوفير الوسائل السليمة للتربية والتعليم.

صلاح الدين ... الداعي إلى نهضة وتوحيد الأمة

تنبه صلاح الدين إلى ضرورة فتح المناطق الواقعة في القرن الإفريقي وهى اليمن وعدن. ولذلك أرسل طوران شاه في حملة إلى اليمن. وبالفعل، ركز طوران شاه على منطقة تعز باليمن لتصبح القاعدة الحربية الجنوبية التي حرص صلاح الدين على ضمها تحت سيطرته ليقطع الاتصال بين صليبي أثيوبيا والصليبيين في بيت المقدس. ونتيجة لخبرته الإستراتيجية، رغب صلاح الدين في أن يكون له عمق إستراتيجي فشرع في فتح برقة ثم طرابلس ثم بعض مناطق تونس.

وكذلك، بدت الإصلاحات التي قام بها صلاح الدين والفتوحات التي تمت تحت إمرته واضحة أمام أعين ناظريه حتى إن علاقته بالخليفة العاضد أخذت

تتوطد. واستغل صلاح الدين تقربه من العاضد في الحديث إليه عن نور الدين محمود رغبة منه في جذب انتباه الخليفة الفاطمي إلى ضرورة توحيد الأمة دون أن ينقص من سيادة الدولة الفاطمية. وكانت الحوارات التي دارت بين العاضد وصلاح الدين عن نور الدين قد تركزت على صفات ذلك القائد النورى، ومن أهمها على الإطلاق أنه لم يكن لديه وقت يضيعه في ما لا يعود على الأمة بالفائدة. ولنتوقف عند هذه النقطة المهمة في حياة الشباب، ألا وهى مشكلة وقت الفراغ الذي يشعرون به. وفى الحقيقة، فإن هذا الوقت غير المستفاد به في المصلحة يعد من أكبر المفاسد التي تعوق تقدم الأمة، وذلك لأن عدم انشغال الشباب بما ينفعهم سيؤدى بهم إلى الإقبال على المفاسد.

واستمر صلاح الدين في إخبار العاضد عن صفات نور الدين محمود ليحببه فيه. ولقد حرص صلاح الدين على أن يقص على العاضد تلك الرؤية التي رأها نور الدين. وقد وصف ابن الأثير رؤية القائد النورى لرسول الله ﷺ وهو يأمره بالذهاب إلى المدينة ليستنقذه من أيدي رجلين أشار إليهما الرسول الكريم في تلك الرؤية. فما لبث نور الدين محمود إلا أن أمر بعض المقربين إليه بالتوجه إلى المدينة المنورة لاستكشاف الأمر. وأخذ هؤلاء المبعوثون من قبل نور الدين في البحث حتى اكتشفوا أن رجلين قدما بالفعل إلى المدينة من فترة بسيطة، وقد شاع عنهما تضرعهما إلى الله تبارك وتعالى وحبهما لرسول الله ﷺ. ولما جاءت نور الدين أخبار الغريبين عن المدينة المنورة، احتار في تحديد الغرض من مجيئهما، فأمر بتفتيش البيت الذي يقيمان فيه في المدينة. وكانت الصدمة الكبرى أن هذين الرجلين كانا قد شرعا في حفر خندق تجاه قبر الرسول ﷺ داخل مسجده. وبعد القبض عليهما وضربهما، اعترفا بالجرم الذي قدما لاقترافه إذ كان الصليبيون قد عينوهما لنبش قبر النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه. وقد أثرت تلك الرؤية والهمة التي أبداها نور

الدين في تنفيذ التكليف الذي جاءه بالرؤية في قلب الخليفة العاضد الذي قال: "لو أن لي برجال يطيعونني مثل نور الدين محمود، لملكت الدنيا بأسرها".

العودة إلى ركب الجماعة

وجاءت الأوامر واضحة من نور الدين محمود إلى صلاح الدين الأيوبي بضرورة إنهاء الخلافة الفاطمية وإعلان ولاء مصر للدولة النورية. تردد صلاح الدين في تنفيذ الأمر بصورة فورية نظراً لمرض الخليفة العاضد ورقة طباع صلاح الدين التي دعته للإشفاق على العاضد من وقع ذلك الأمر عليه. وبالتالي اجتمع صلاح الدين بالمحيطين به من أهله ومقربيه واتفق الجميع على أن يحدث ذلك الأمر أثناء غياب صلاح الدين عن القاهرة، بحيث لا يصل إلى علم العاضد أن الخلافة قد نزعت منه وأن مصر دخلت تحت إمرة الخليفة العباسي المستضيء بالله. وفعلا، جاء من دمشق رجل يلقب بالأمير العالم وخطب الجمعة في الجامع الأزهر لينهى خطبته دون الدعاء للخليفة العاضد ولا الخلافة الفاطمية، وإنما دعا للمستضيء بالله ونور الدين محمود، ثم نزل فصلى بالناس دون أن يحدث أي رد فعل سلبي من قبل المصلين ولا من الرعية بعد ذلك لمدة عشرة أيام. وفى اليوم العاشر توفى العاضد، فبكى صلاح الدين يومها وقال: "لقد قتلناه كمداً على ضياع الخلافة الفاطمية!". ومن الأمور التي تلفت الانتباه أن لفظ "العاضد" يعنى "القاطع"، وكأن العاضد كان قاطعا للخلافة الفاطمية. سبحان الله القائل في محكم آياته:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

[آل عمران]

ولعل الآيتين الكريمتين تؤكدان ما قدره المولى العلى القدير لشاب مثل صلاح الدين لم يتخط الخامسة والثلاثين من عمره فيصبح حاكما على مصر وتنتهي على يديه الخلافة الفاطمية التي حكمت مصر مائتي عام!

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الكهف].

وبقرب انتهاء هذا الفصل، تجدر الإشارة إلى الخطأ الذي وقع فيه العاضد لفترات طويلة طيلة خلافته إذ أنه لم يأخذ في عين الاعتبار ضرورة اختيار الصحبة الصالحة لتكون خير عون له في الحكم. ومن المهم بمكان أن يختار المرء صحبته ممن يعينونه على المضي في طريق النور. ويقول الشاعر:

لا تسأل عن المرء بل اسأل عن قرينه إن القرين بالمقارن يقتدي

ولا ننسى أيضا مقولة العاضد: "لو أن لي رجالاً مثل نور الدين، لملكت العالم بأسره". وكذلك نرى أن صلاح الدين، بعد توليه وزارة مصر، بدأ ينتقى المحيطين به، فأبقى على من يعينه في دربه، وأبعد من هو دون ذلك.

ولو أن طريق كل منا وهدفه من الحياة هو الفوز بالجنة، فلا مناص من أن يدقق فيمن يصاحب ليلازم من يتقى الله عز وجل ويبتعد عن من اتبع هواه. ولذلك فالمطلوب من كل قارئ أن يراجع صحبته وأخلاءه الذين يتمنى أن يكونوا مقابلين له في الجنة على سرر موضونة، وحتى لا يكون يومئذ ضمن من هم بعضهم لبعض عدو والعياذ بالله.

***